قصيدة لم تنشر للراحل مؤيد سامي

حسين التميمي

حين وصلني خبر اغتيال مؤيد سامي ، تعرفت لأول مرة في حياتي على معنى كلمة فاجعة بشكلها الحرفي .. بسخونتها ، بقسوتها ، بجنونها ، بلا معقوليتها ، بـ عدميتها التي أطلّت بي على هوة من الفراغ واللاجدوى ، كنت بحاجة وقتها الى أن أصرخ ، تلك الصرخة التي لم يقيض لها أن تخلّد خلود الأسطورة ، لكنني في تلك اللحظة سمعتها ترن في أذني وكأنها صاتت للتو .

حضرت بعد ذلك مجلس العزاء ، وكان الأمر أشبه بدعابة سوداء ، كنت أفكر في كل لحظة بأن مؤيد سيطل علينا ، كي يقدم لنا الشاي أو القهوة أو السكائر وهو يبتسم تلك الابتسامة المبهجة ، ثم يقول لي ولأصدقائنا من الأدباء :

أنظروا .. إنها مجرد طرفة فلا تحزنوا أكثر مما يجب .

لكن مؤيد لم يطل علينا طيلة أيام العزاء ، ولم يشرب معنا فنجان القهوة أو الشاي ، والوجوه فيما حولي كانت واجمة والعيون تخفي ماءها بعناية خلف المحاجر .. هل حقا مات مؤيد ؟ كنت أسأل نفسي كل يوم هذا السؤال ، وأتحاشى الإجابة خوف أن انخرط في البكاء .. يبدو أنني كنت مهتما في أن أظهر بمظهر القوي بين الأصدقاء ، لكن في الليل وبعد أن تخلد عائلتي الى النوم ، كان ثمة صوت غريب يفاجئني وهو يجهش بالبكاء .. بمرارة ، وفي الظلمة علمت بأن الصوت كان صوتي وأن وجناتي كانت ساخنة ، سخونة أرض يباب لم يدركها ماء كهذا منذ أعوام وأعوام ، إحساس غريب غمرني لحظتئذ ، كنت أجهش بالبكاء كطفل صغير ، وشعرت بان العالم أجمع لن يكفكف دمعي .. باستثناء مؤيد ، لكن أين مؤيد الآن ؟

أكثر ما خشيته في تلك الأيام هو أن تقع عيني في عيني زوجة مؤيد أو أن أرى أطفاله أمامي ، لكني رغم هذا شعرت برغبة شديدة في السؤال عن أمر تركة مؤيد ، ولم تكن تلك التركة تمثل نقودا أو عقارا أو أي شيء آخر يشبهها ، إنما التركة كانت أوراق مؤيد مما أنجزه كتابة في القصة والشعر والمقالة ، ولم تكن لي في هذا المجال معلومات دقيقة لكن هاجسا ما كان يلح علي في أن مؤيد كتب الكثير ولم ينشر إلا القليل ، حتى أنني أذكر أنه كان يحمل الكثير من المواد التي تخص الاصدقاء الى الصحف في بغداد ويخجل من نشر كتاباته - باستثناء النزر اليسير منها ،، وإلى يوم ما قبل اغتياله كنا نتحدث عن مشاريع كتابية كثيرة وأمور أخرى متشابكة ومتشعبة تحتاج منا الى عمر بأكمله كي ننجزها ، وأذكر أنه كان يقرأ على مسامعي بعض القصائد التي يكتبها وحين أظهر اعجابي بهذه القصيدة او تلك وأحثه على أن ينشرها أراه يبتسم تلك الابتسامة المضيئة التي تختزل الاجابة بخليط غريب من السمو ونكران الذات وعدم الرغبة بتحقيق أي منجز شخصي (أقارب ، أصدقاء ، غرباء ..

كل يوم .. كل يوم

ستظل تساعدهم على الحياة .

وشفتاك تقبلان أقدام الموت المبللة بالدموع ..وهما تمتدحان فضائل الحياة)كنت أشعر برهبة وخوف كبير عليه حين استمع الى بعض قصائده ولعل أكثر ما أفزعني هو قصيدة (الكؤوس الفارغة) ولا أدري لماذا فرقعت في أذني اسواط قداس موتزارت الجنائزي وأنا أتخيل حوذي عربة الموتى يلهب ظهر خيوله كي تصل سريعا على وقع اللحن المأساوي الى العالم الآخر ، حيث تقبع جثامين من نحبهم منذ انكيدو وحتى مؤيد .

الغريب في الأمر أن مؤيد قرأ علي قصيدة (الكؤوس الفارغة) في نيسان ٢٠٠٤ وبعد رحيله بأربعة أسابيع أقام اتحاد الأدباء في بغداد أمسية تأبينية لمؤيد ، وهناك سمعت خبر مفاده أن وزارة الثقافة ستطبع مجموعة شعرية لمؤيد تحت عنوان (رؤى قلقة) ولأن صفحات المجموعة كانت قليلة فقد اقترح الأدباء أن تتصدر المجموعة كلمات التأبين التي القيت في الحفل ، ولأنني كنت على يقين من أن لمؤيد قصائد أخرى غير قصائد المجموعة ، رحت أناشد الأصدقاء آملا أن يكون أحدهم قد احتفظ بقصيدة من قصائد مؤيد ، لكن لم يفدني أحد بما أملت ، بعدها بحثت اكثر من مرة بين أوراقي عسى أن أجد شيئا من قصائده لكن جميع محاولاتي باءت بالفشل .. وكدت أقطع الأمل لولا أنني وفي بداية نيسان ٢٠٠٥ شعرت وأنا وحيد في غرفتي بحالة غريبة من التجلي والصفاء ، فمضيت كالسائر في نومه ومددت يدي لأستل من بين كومة من الأوراق قصيدة (الكؤوس الفارغة) لحظتئذ شعرت بأن مؤيد يبتسم تلك الابتسامة التي كانت تعني هذه المرة :

(ألم أقل لك ؟) .وهأنا أقوم الآن وفاء لمؤيد (الذي كان يكن لجريدة المدى كل الحب والتقدير) بنشر هذه القصيدة التي لم تنشر من قبل . ومعها نسخة مرفقة بخط مؤيد

الكؤوس الفارغة

مؤيد سامي

الكؤوس الفارغة
تئن من الوحدة ..
وأنا أنتظر..
ثمة من لن يأتي ..
ناسيا خطواته الداكنة ،
فجوة .. فجوة .. تختفي في الطريق ..
والطين يسحب أحلامه
نحو نعوشها الغافية ..
وأنا أضلل بالصمت أقدامي الغائبة

أرفع يداً خالية ..
تدق على لازورد الرجاء ..
بسرب من الأغنيات والأدعية الساكتة .

❖ ❖ ❖

هأنذا قد ثملت من الطريق
فإقتطف دمعتي الصامتة ..
وإذ تحسب عمري ..
فلا بأس في أن تنسى سنواته الفائتة ..
كالدروب التي تذهب
فارغة من الخطوات ..
ومن الملامح ..
وإذ يأتي المسافر في نومه
مثل كأس فارغة
لن يجد أحدا في الطريق
يمد يدا لانتشال الغريق
ستظل الدروب مثل أذرعة خاوية .
تستطيل عبثا نحو سماء بليدة ..
وأنا أظل ..
أكتب بخطواتي المتعبة ..
خارطة للطريق

الى سنواتي الهاربة ..
وأنثر وردا وشوكا
على ساحة أحلامي الخائبة ..
أضائل نفسي ..
علني أختفي في الوجود
غريبا دائما أرتدي الأقنعة ..
لأمثل دور السعيد .
فمتى أغادر ؟
خذوا ماتريدون مني ..
فأنا لا أريد ..

❖ ❖ ❖

حين تكون العيون حفراً للظلام
أوكاراً للخفافيش في رأسك
قبورا فاغرة في العتمة الباهتة
مسامير غائصة في الروح
فماذا تريد ؟
هل ستظل تجتر أيامك .. ؟
آكلاً وجباتك المعتادة من البشر ،
أقارب ، أصدقاء ، غرباء ..
كل يوم .. كل يوم
ستظل تساعدهم على الحياة .
وشفتاك تقبلان أقدام الموت المبللة بالدموع ..
وهما تمتدحان فضائل الحياة

❖ ❖ ❖

كم أحن الى التراب ، الهواء ، اللهب ، المياه ، الضياء
..
كم أحن إليك
كم أحن إليكَ
خذيني ...

في الحدث الثقافي

النزاع على إدارة المعهد الفرنسي للآثار بالقاهرة

اندلعت مؤخراً أزمة بين وزارة التربية الفرنسية المسؤولة عن المعهد الفرنسي في القاهرة ومديره برنار ماتيو عزمت في أعقابها على عدم التجديد له واستبداله بآخر على عكس رغبة أغلبية الآثاريين الفرنسيين المتخصصين في المصريات.

ودرس الرئيس الفرنسي جاك شيراك في الوقت الحالي اسم المرشح البديل لمدير المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة في ظل نزاع فرنسي داخلي على النفوذ في المعهد العريق.

وقد اقترحت الوزارة على الرئيس شيراك اسم عالمة المصريات لور بانتالا بالتزامن مع تنامي رغبة العلماء المصريين في بسط نفوذهم ومتابعتهم على نحو أوسع لأعمال البعثات الأجنبية في بلادهم بعد أن لاحظ الفرنسيون تنامي هذا الاتجاه بدعم من الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار المصرية زاهي حواس.

وتصف تقارير فرنسية حواس بـ"صاحب النفوذ الواسع" ويرون فيه "نزعة لحب الظهور" كما يعيبون عليه "وصف أقل كشف بالاستثنائي". وسجلت تقارير منشورة في العاصمة الفرنسية لحواس محاربته لتهريب الآثار مما حدا به إلى المطالبة بأن يتولى المصريون بأنفسهم وضع ضوابط العمل على نحو أكثر صرامة.

وقد عزز من أجواء تراجع الثقة أن الأمن المصري ضبط مؤخراً آثارياً فرنسياً وبحوزته آثار مصرية مهربة وأصدر القضاء حكماً بسجنه بعد أن تمكن من الهرب إلى خارج مصر.

وفي الداخل الفرنسي دخل المعنيون في نزاع مرير وسط حديث عن أن المشكلة ناجمة عن صراعات فرنسية/فرنسية حيث تحدث جان يويوت الأستاذ المعروف في كوليج دو فرانس عن "مؤامرة رهيبة" تتمثل في التقليل من شأن إنسان بدعوى التمسك بالمبادئ الأخلاقية.

وأشار يويوت صراحة إلى وجود "عمل مافيوي"، وذكر في هدا الصدد نيكولا غريمال أستاذ كرسي المصريات في كوليج دو فرانس والمدير السابق للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة كما ضمن قائمة اتهاماته جان لوكلا الأمين العام لأكاديمية الأدب، متهماً الاثنين بالوقوف وراء الحملة التي تستهدف برنار ناتيو ورغبتهما في فرض مرشحهما. ولم يخف لكلا من جانبه أنه كان ضد تولي برنار المهمة منذ البداية.

وقال في هذا الصدد "من الناحية العلمية أرى أن محصلة عمله إيجابية، لكني رأيته مرة واحدة فقط في خمسة أعوام بينما نحن نستقبل مديري المعاهد الفرنسية في الخارج كل شهرين أو ثلاثة أشهر. إن وظيفة مدير المعهد تعد أيضا ذات طابع ديبلوماسي له أهميته لتحقيق أفضل أشكال التعاون الفرنسي المصري" أما غريمال فقد قال إنه يشعر بالإهانة من جراء ما قيل في هذا الموضوع.

ويعد موقع مدير المعهد في القاهرة الذي تأسس في عام ١٨٨٠ على يد جاستون ماسبيرو مطمعاً للكثير من علماء المصريات الفرنسيين ويعمل في المعهد ١٤٠ شخصاً ويشرف على ٤٥ بعثة أثرية في مصر إذ يقف المعهد خلف تأسيس إدارة الآثار والمتحف المصري على يد شامبليون.

ويعود الجانب المصري بالخلاف إلى أيام غريمال حين كانت مكتبة المعهد محظورة على الطلبة المصريين قبل أن يفتحها أمامهم برنار ماتيو حيث يقول حواس بلهجة لا تخلو من سخرية إن "غريمال نجح في التخلص من ماتيو وأنا بانتظار أن يتخلص مني أيضاً".

يذكر أن المجالس الفرنسية الثلاثة التي تتولى مسؤولية التجديد لمدير معهد القاهرة (أكاديمية الأدب والمجلس الوطني للجامعات ومعهد القاهرة) وافقت في تشرين الثاني الماضي على التمديد لبرنار لمدة خمسة أعوام أخرى، فيما تقدمت وزارة التربية لاحقاً بترشيح خليفة له.

المحرر

اسرار الحكاية الجديدة

قراءة في افكار محمد خضير

وديع شامخ

الحلقة الخامسة

مجرات التأثير / المقابسة

(كلّ شيء يحترق الأرواح والأجساد وتبقى (الكرما)-وهي عبارة عن وحدة أفكار بوذية ذهنية تتناسخ عددا لا متناهيا من المرات-).

(أن تعبر من حياة الى اخرى كمثل النوم في اسرة مختلفة في غرف مختلفة- افلوطين).

(في كل لحظة من حياتنا نحن نَنسخ ونُنسخ) -بورخس-

يذهب محمد خضير في هذه المحاضرة الى إشهار اعترافه في التأثروالتاثير بالقول(اعتقد أننا جميعا نمر بالحقول ذاتها ، حقول التأثير) ولتأكيده على ضرورة الوعي بالتأثر(لابد من إنارة المدارات الغاطسة في نصف الظلام التي تدور فيها النصوص... المزدحمة بآثار الأقدام ...ان محاولة استعادة الآثار، تضع خطواتنا على الطريق الصالحة بين قلاع التأثير وتُعين لنا الاتجاه الصحيح).

وحتى لا نفهم ان محمد خضير قد سلّم بالتأثير وحده او محاولة اكتشاف الانفعال به فقط، فانه سيسعى للكشف عن وعي المنفعل لتشكيل فعله الخاص ، لذا نراه يبتعد عن قانون (الفعل ورد الفعل) في الفيزياء الميكانيكية ، لانه يدرك ان (تسارع السقوط الحر) نتيجة رد الفعل باعتبارها مساوية للقوة في المقدار ومعاكسة لها في الاتجاه ، ويذهب الى علم المنطق كمعطى فلسفي ، ويستشهد بالمقولتين التاسعة والعاشرة ، اللتان تبحثان في تقبل بالتاثر : قبول آثر المؤثر والفعل ، أي التأثير في الشيء الذي يقبل الأثر ، يقول(وإذا كانت فرضيات هاتين المقولتين مادية تجريبية فان نتائجها تتجلى في التصور العقلي المحض) ساحبا هذين المفهومين الى الحقل الأدبي (ان العقول الأدبية هي عقول منفعلة ، وهي عقول فعالة أيضا يؤثر بعضها في بعض اضطرارا واختيارا ، لكن اشرف أنواع التأثير هو التاثير التلقائي ...التجاذب المتوازن ... الاختيار ....الانتخاب ، الاصطفاء) .

ان مفهوم محمد خضير هذا في التأثير ، قد بُحث عميقا في تراثنا النقدي العربي ، وكانت النتائج تتراوح بين السرقة ، والتضمين ، والانتحال...الخ ، حتى جاء وقوع(الحافر على الحافر) أحيانا ليفض الاشتباك في (خيمة النقد) وينتصر للنصوص . وبين التأثير والتأثر دخل مفهوم الصدفة والسببية وأيهما اكثر فاعلية في الحضور. في هذه العملية يعلق محمد خضير (في المنطقة ذاتها ، دخل التأثير في اشتباك ، لم ينفك حتى اليوم ، مع مفاهيم اخرى مثل الحتمية والسببية والصدفة والاحتمال) وينتصر الكاتب للسببية (ولعل ارتباط التأثير بالسببية أقوى الارتباطات) ، وهو يؤكد مفهوم النقد الحديث (التناص) الذي جاء به(جيرار جينيت) حتى تبلور كمصطلح نظريا على يد (جوليا كرستيفا) أخيرا ، وان محمد خضير يفضل كلمة (المقابسة) على (التناص) ، وهذا يعود في رأيي لما تحمله هذه الكلمة من نورانية تستفز عقل الكاتب الشرقي/ المسلم وعلاقتها بهالة النور ، كما أنها وردت في المقابسات لأبي حيان التوحيدي، سيما ان محمد خضير ينفعل بالكلمات الشعرية والتي تحمل المفهوم ذاته نقديا .

لكن محمد خضير كما نرى يقع في إشكال واضح في حديثه عن التأثير والتأثر بوصفهما الحقل الشرعي والحقيقي والخصب لولادة النص الأدبي وكاتبه ، نراه يحاول جاهدا ان يحرق مرجعياته وينزع أقنعته قبل ان يكتشفها الآخرون كما صرح اكثر من مرة كما رأينا، وكأنه بوذي يريد إحراق بوذا (يعتقد البوذيون بأنه ليس المهم ان تثق ببوذا، المهم اتباع تعاليمه- من حديث بورخس عن البوذية في كتابه سبع ليال-).

وبسخط واضح على الدراسات المقارنة في النقد الأدبي والتي تركز على السياق التاريخي المتعاقب فقط ، يعلق خضير(إننا نتطرق في دراستنا الى تشابه هذا العمل او ذاك ، وغالبا ما يكون الأصلي المقارن ...غربيا ، فريدا، مثاليا، أما العمل المتأثر به فهو نسخة طبق الأصل وبذلك لا نلتفت الى الآليات المعقدة لعملية التأثير والتأثر ونضع النسخة الثانية المنفعلة موضع الاتهام والتحقير دون النظر الى صيرورتها الخاصة ومراجعها القوية المتوازنة)، ويستشهد الكاتب بتطبيق عملي لمثل هذا التعسف النقدي على النصوص التالية بقوله(وفي تأليفنا المعاصر برهان مماثل على الوجود السابق للأشياء في قول بورخس -الكتب جميعها موجودة قبلنا- او ان -المؤلفين يؤلفون كتابا واحدا -والفكرتان صدى لفكرة -المُثل الأفلاطونية -أي أسبقية صور الأشياء لوجودها المادي). ترى هل ينتصر محمد خضير لبورخس بوصفه منفعلا واعيا ، أم لافلاطون بوصفه النص الاول!!؟.

يذهب محمد خضير في هذه المحاضرة لرصد مجمل التأثيرات التي وقعت تحت سطوتها القصة العراقية سلبا وإيجابا ، اذ يشخص أربعة تيارات -مجرات -كبيرة وعلى النحو التالي:

١-التيار الواقعي- الروسي، والأمريكي ، والإنجليزي.

٢-تيار الوعي

٣-التيار الواقعي الجديد والوجودي الشيئي

٤-التيار الواقعي الغرائبي والواقية الرمزية .

وهذا الأخير الذي هيمن على كتاب الستينيات -وهو أحدهم- الى الوقت الحالي مع التجارب القصصية الجديدة ، إذ ان هذه التأثيرات بمجملها ليس لها أثر تعاقبي فهي متداخلة ومتفاعلة ومنفعلة في الوقت ذاته وعلى كافة الكتاب العراقيين قديما وحديثا.

يشخص الكاتب خللا نقديا عربيا لازم التجارب الإبداعية بوصفها تابعة ولا أحد يفكر في تجديد موضوعاتها ، إلى ان يصل الى العقل النقدي الحديث الغربي بقوة جذب مركزية استلبت العقل الشرقي بوصفه فلكا تابعا لمركزيتها المهيمنة ، في حين يجد ان الثقافات الأخرى في أمريكا اللاتينية قد أوجدت مركزيتها الخاصة وسحبت إليها عقولا روائية عربية وشرقية من محيط الجذب الغربي ، وصار بدلا من المركز الواحد والجذب الأحادي ، تبرعمت حول محيط المجرة الأولى مراكز جذب عديدة خلقت لها محيطات مستقلة ، حيث ولّد هذا الزخم الجديد لهذه المجرات زخما أقوى من الزخم الكلاسيكي للمجرات الهرمة.

يستعرض محمد خضير تجربته الشخصية في كتابة القصة إزاء هذه المؤثرات بالقول(لقد انتقل الكاتب من البصر الى التعقل ،وأستطيع وصف التعددية المرجعية بأنها فضاء يسبح فيه العمل الأدبي وسط تأثيرات متلاحقة لذا يصعب فرز هذه التأثيرات او حصرها) ، وحتى يبرهن على صعوبة الفرز والحصر لمرجعياته يؤكد ان أعماله لا تتسم بقيمة التجريب (لان التجريب من سمات الأعمال القلقة إزاء مراجعها ، وافضل التحقيق لانه يؤمن اتصالا وثيقا مع مراجعها ثم تبرهن على هذا الاتصال بأفضل البراهين) .

يخلص أخيرا الى القول: (المؤلفون الجيدون وسطاء شفافون يتراءى العالم عبرهم بكل أطيافه الحيوية وتذوب فيهم أعراض الفساد).

ولكننا رأينا ما ورد عنه في المحاضرة من فهم للتأثير والتأثر وانتصاره للسببية ، نراه يعود الى نقض هذا العامل في آليات اشتغال جديدة عبر (مجرات من العقول الكبيرة والمتكافئة) يقول: (إنني أؤمن بالمصادفة الكونية التي تجعل كاتبا سابقا على كاتب آخر ، او كاتبا مجاورا لاخر) .

فهل كان محمد خضير مصادفة بين العقول والمجرات؟

وأية صدفة تقود للتكافؤ؟؟